ولي عهد أبيه . فامتدحته فأمر لي بعشرين ألف درهم .(٣٥) وذكر إسحاق بن إبراهيم الموصليّ انّ الخليفة الهادي طلب منه أن ينشده شعراً يطربُ له . فأنشده :

وإنّي لتعروني لذكراكِ نَفْضَةٌ ... كما انتفضَ العصفورُ بلّلَهُ القَطْرُ
فياحبّها زدني جوًى كلَّ ليلةٍ ... ويا سلوةَ الأيام موعدكِ الحشرُ
هجرتكِ حتى قيل لايعرفُ الهوى ... وزرتكِ حتى قيلَ ليس به صبرُ

فاستطابه جداً وأعطاه سبع بدر(٣٦). وقال الأصمعيُّ: « كنت عند الرشيد ، فدخل عليه إسحاق بن ابراهيم الموصلي . فقال : أنشدني من شعرك . فأنشدهُ :

وآمرةٍ بالبُخل قلتُ لها اقصري ... فليس إلى ما تأمرينَ سبيلُ
أرى الناسَ خلّانَ الجوادِ ولا أرى ... بخيلاً له في العالمينَ خليلُ
ومن خيرِ حالاتِ الفتى لو علمته ... اذا نالَ شيئاً أنْ يكون منيلُ
فعالي فعالُ المكثرينَ تحمُّلاً ... ومالي كما تعلمينَ قليلُ
وكيف أخافُ الفقر أو أحرمُ الغنى ... ورأيُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ ؟

فقال الرشيد ، يافضلُ ، أعطه عشرين ألف درهم . ثم قال : لله أبيات تأتينا بها ياإسحاق ما أتقن أصولها ، وأبين فصولها . وأقل فضولها . فقال ، والله ياأميرَ المؤمنين ، لاقبلتُ منها درهماً واحداً قال ، ولم ؟ قال ، لأنّ كلامك ، والله ، خيرٌ من شعري ؛ فقال ، يافضلُ ، ادفعْ إليه أربعينَ ألفاً . قال الأصمعيُّ ، فعلمتُ أنه أصيد لدراهم الملوك مني(٣٧) » .

لقد أصبحت مجالس الخلفاء مُنتدى الأدباء ، وملتقى الظرفاء . يأتونها من كل مكان طلباً للمال والجاه ، أو التمتع بملذات الحياة أو المشاهدة ورؤية معالم الحضارة في ظلّ الدولة الجديدة .

وتجدر الاشارة هنا الى أن المؤرخ ابن خلدون جعل جلّ العلماء من الأعاجم. وقال: «لم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلّا الأعاجم»(٣٠). وذهب الدكتور شوقي ضيف الى القول إن جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم»(٣١)». ونحن لاننكر جهود الأعاجم في الترجمة والتأليف ولكن هذا لايعني أنّهم الوحيدون الذين قاموا بحفظ العلم وتدوينه وان جمهور المفكرين منهم. واذا كان هذا الأمر سديداً فاين نضع الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبا عمرو بن العلاء، والأصمعي، والمفضل الضبي وهشام بن محمد الكلبي، والإمام مالك بن أنس، وأبا العباس المبرد، وأبا تمام، والبحتري وابن نُباتة السعدي، والعباس بن الأحنف، وابن المعتز، والمتنبي، وأبا فراس الحمداني وابا العلاء المعري لقد عاش الجميع عرباً وغير عرب تحت مظلة الاسلام وحركته القوية وسيادة الروح العربية الاسلامية، فتفجرت طاقاتهم العلمية والأدبية بها.

عوامل ازدهار الشعر:

الشعر فن جميل من فنون الأدب، ترتاحُ له النفوس وتبتهجُ وقد لقيتْ صناعتهُ عنايةً فائقةً ورعايةً بالغةً منذ عصر ماقبل الإسلام، وبقيت تنمو وتزدهر الى أنْ وصلتْ إلى صورةٍ مُثلى متألقةٍ تجذبُ الناظر وتبهره في العصر العباسي، وقد ساعدتْ عوامل كثيرة في هذا النمو والازدهار، ولعلّ من أهمها حبّ الخلفاء للشعر، وتقديرهم للشعراء، وتشجيعهم للنظم والإنشاد، واغداق الاموال بسخاء على القادمين عليهم، والمتصلين بهم والمنتسبين إليهم، والمنشدين بين أيديهم. ويجب ان لاننسى أنّ أغلب الخلفاء العباسيين كانوا مثقفين ثقافةً عاليةً، ولبعضهم مشاركة طيبة في نظم الشعر وتدبيج النثر، ولكثير منهم آراء سديدة، ومناقدات ذكية، ومناقشات دقيقة، ومحاورات ظريفة، ومناظرات لطيفة روتها كتبُ التراجم والسير والآداب.

إنّ عيون الشعر العربي وغُرره أُنشِدتْ في مجالس الخلفاء والوزراء والولاة والقواد، وكانت العطايا تنهال على الشعراء المجيدين، والشواهد على ذلك كثيرةٌ. فهذا ابراهيم بن علي بن هَرْمة يدخل على المنصور ويُنشده قصيدةً مدحية ينال بها منه عشرة آلاف درهم.(٣٢) وقال المؤمّل بن أميل، قدمت على المهدي، وهو إذ ذاكَ

وشاركت الأمم غير العربية التي دخلت الاسلام وتعلّمت اللغة العربية، في الحركة الثقافية. وقام فريقٌ ممن أصولهم غير عربية بترجمة الكتب. ذكر ابن النديم مجموعةً منهم أمثال عبدالله بن المقفع، والحسن بن سهل، وأحمد بن يحيى البلاذري، وجبلة بن سالم، واسحاق بن يزيد، وموسى بن عيسى(٢٧). واقبل فريق آخر على التأليف والتصنيف ونظم الشعر. واكتسب بعضهم شهرةً كبيرةً في العلم والأدب والغناء أمثال حماد الراوية. وبشار بن برد، وأبي نواس. وسيبويه، والكسائي، والفرّاء، وابن درستويه، وابراهيم الموصلي، وابنه اسحاق(٢٨).

واتصل العرب بالثقافة الهندية ونقلوا منها ولاسيما في الرياضيات والفلك والطب. وقد ذكر ابنُ النديم اثنين من الذين نقلوا العلوم مباشرة من الهندية الى العربية، وهما مَنْكة الهندي وابنُ دهن الهندي(٢٩). ومن الكتب التي تُرجمت على يديهما كتاب علاجات الحُبالى. وكتاب أسماء عقاقير الهند. وكتاب أجناس الحيات وسمومها. وكتاب التوهُّم في الامراض والعلل(٣٠). وعرف الهنود علم العروض، ووضعوا للشعر بحوراً وأوزاناً. وكانت لهم في البلاغة نظرات صائبة. كما كانت لهم جهودٌ مثمرةٌ في مجال الفلسفة. عكفَ البيرونيعلى دراستها في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة). وتذوّق العرب قصص الهنود. فقاموا بترجمة روائعه. مثل كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية، وهو هندي الأصل ألفه الفيلسوف بَيْدبا للملكِ دبشليم. وترجموا ألف ليلة وليلة وأصله هندي(٣١) وان كان للعرب فيه زيادات كثيرة عن أصله. وكذلك قصة السندباد الكبير والصغير، وقصة هبوط أدم. وملك الهند القتّال. ونقلوا أيضاً بعض الحكم والأمثال وتقبلوها بقبول حسن وحرصوا على الافادة منها.

إنَّ الحضارةَ دخلت كلَّ جانب من جوانب الحياة آنذاك . في النظم والتقاليد . وفي مجالس الطرب والغناء . وفي بناء الدور والقصور . وفي استخدام وسائل جديدة في الأطعمة والألبسة والفرش والأثاث وأدوات الزينة والترف . كل هذه الأمور قادت الشعراء الى النظم في موضوعات جديدة لم تكن مألوفةً أو معروفةً من قبلُ . اضافة الى مظاهر الطبيعة الخلابة من أنهار وأشجار وأزهار وأثمار وأطيار ... فإنَّها فسحت للشعراء . ولا سيما شعراء الوصف . المجال الرحب لتقديم قصائد ومقطوعات رائعة . مصاغةً بأسلوبٍ جذاب . متدفق من خيال خصب وقريحة معطاءة

ومن عوامل ازدهار الأدب الحريةُ الواسعةُ التي وجدها الشعراء في ساحة النظم . فإنَّهم أطلقوا عنان خيالهم في كلّ شيء دون خوفٍ أو وجلٍ أو استحياء . معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم بما يُملي عليهم الجو الذي كانوا يعيشون فيه .

وهذه الحرية ـ وان دفعت الشعراء الى الاكثار من النظم ـ أدّتْ الى ظهور تياراتٍ شعريةٍ بعيدةٍ عن الخلق العربي الأصيل والتربية الاسلامية النقيّة . ومَنْ يرجع الى المصادر الأدبية يجد شعراً جماً في المجون والدعوة الى التحلل والانسياق وراء اللذّة والمتعة والقصف في مجالس الجواري والغلمان . اضافة الى تيار الشعوبية الذي كاد يعبثُ بالمجتمع العباسي لولا وقوفُ الخلفاء وشرفاء القوم بوجهها جميعاً ومحاربتها وابطال دعواتها .

ان العصر العباسي زاخر بعطائه الفكري . وسوف نحاول أنْ نُظهرَ جوانبه المشرقة التي تُعد مفخرةً للاجيال السابقة واللاحقة .

كل الحب والتقدير

حظاً سعيداً

العصر العباسي الأول
١٣٢ ـ ٢٣٤ هـ

شهدتْ الحياةُ الأدبية في العصر العباسيّ تقدماً ملحوظاً . ولاسيما بعد التوسُّع الحضاريّ وانتشار الثقافة الاسلامية في أوساط واسعةٍ من المجتمع . وانفتاح الخَلق على عوالم جديدةٍ من المعرفة .

وكان الشعرُ ـ وهو ديوان العرب ـ العصبَ النابضَ في قلب المجتمع العباسي . والمرآة الصادقة التي انعكست عليها صورُ الحياة وأحداثها . والدفترَ الأمينَ الذي قُيِّدتْ فيه أفكارُ الناس وأخيلتُهم ومشاعرُهم وأحاسيسُهم .

وقد كثر نظم الشعر في هذا العصر وازداد عدد الشعراء زيادةً لانجد لها نظيراً في أي عصر آخر(٣٨) . أما الفنونُ الشعريّةُ فتكاد تكون نفسها . وانْ دخلها التطوير بحكم الحياة الجديدة . فنلقى المديخ والفخر والهجاء والرثاءَ . كما نلقى الغزلَ والخمريات والوصف والطرد والشكوى والعتاب والاستعطاف ... وقد استجدّتْ جوانبُ جديدةٌ لها صلة بالموضوعات السابقة . أو أنها توليد لها وتجديد .

التجديد في الموضوعات القديمة

الموضوعات الشعرية :

المديح :

يُعدُّ المديحُ من أبرز الفنون الشعريّة منذُ عصر ماقبل الإسلام . وهو يشكّلُ القسمَ الأوفى في نتاج الشعراء . وقد نشأ في بادىء الأمر إعجاباً بالفضائل العربية مثل ، السماحة . والكرم ، والحلم ، والمروءة ، والعفّة ، والاباء ، والشمم ، والعدل ، والقوّة . والشجاعة . وما الى ذلك من الصفات الحميدة . ثم أضيف اليها صفات أخرى مستمدّة من القيم والمُثل الاسلامية . مثل ، التقوى . والورع ، والتواضع . والوقار ، وخفض الجناح .. وظلّتْ هذه الفضائلُ والمحامدُ ترِدُ في شعر المديح في عصر بني امية . وان تحوّل فريقٌ من الشعراء في مديحهم لخدمة أغراضهم الخاصة وفريق آخر لخدمة أحزابهم السياسية وترويج ماعند هذه الأحزاب من مبادىء وأفكار .

ولما جاء العباسيون فتحوا الأبواب على مصاريعها للشعراء المداحين ليدخلوها. مدافعين عنهم، وراذين الخصوم، فجاؤوا مسرعين زرافاتٍ ووحدانا، يتغنون بعظمتهم وقوّة سلطانهم، ويُضفون عليهم تلك الفضائل التي توارثوها عن السلف. وقد طرب الخلفاء لهم، واستأنسوا بهم وخلعوا عليهم، وحضوهم بالأموال. من ذلك ما يُروى أن «الربيع حاجب المنصور قال، قلت يوماً للمنصور، انّ الشعراء بباك وهم كثيرون طالت أيامهم، ونفدت نفقتهم. قال، اخرجْ إليهم فاقرأ عليهم السلام. وقل لهم، مَنْ مدحني منكم فلا يصفني بالأسد، فانما هو كلب من الكلاب، ولا بالحية، فانما هي دُويبة تأكل الترابَ، ولا بالجبَل فانّما هو حجر أصم، ولا بالبحر فانّما هو غُطامِط(٣٩) لجب، ومن ليس في شعره هذا فليدخلْ ومن كان في شعره فلينصرفْ. فانصرفوا كُلّهم الاّ ابراهيم بن هَرْمة، فانّه قال له، أنا (٣٩)

يا ربيع، فأدخِلْه، فلما مَثُلَ بين يديه، قال المنصور يا ربيعُ، قد علمت أنه لا يُجيبك أحد غيره، هاتِ يا ابن هرمة، فأنشده قصيدتَهُ التي يقول فيها،

له لحظات عن حفافَيْ سريره ... إذا كُرّها فيها عذابٌ ونائلُ
لهم طينةٌ بيضاءُ من آل هاشمٍ ... إذا اسودّ من كوم التراب القبائلُ
إذا ما أبى شيئاً مَضى كالذي أبى ... وإنْ قال إنّي فاعلٌ فهو فاعلُ

فقال، حسبُك، هاهنا بلغت، هذا عين الشعر، قد أمرتُ لك بخمسة آلاف درهم». (٤٠). ومما يُروى أيضاً أن حماد عجرد دخل على أبي جعفر المنصور بعد موت أبي العبّاس أخيه فأنشدهُ،

أتوكَ بعد أبي العبّاس إذ بانا ... يا أكرمَ الناسِ أعراقاً وعيدانا
لو مَنّ عُودٌ على قومٍ عُصارتَه ... لَمَنّ عودُكَ فينا الشُهدَ والبانا

فأمر له بخمسة آلاف درهم(٤١). ويُكيلُ الشاعرُ الحسين بنُ مُطير الأسديّ الفضائلَ والمحامد للخليفة المهدي ويجعله عظيماً ماجداً أديباً قائداً بطلاً، فيقول،(٤٢)

فتىً هو من غير التخلق ماجدٌ ... ومن غير تأديب الرجال أديبُ
علا خُلْقه خلقَ الرجال وخُلْقه ... اذا ضاق أخلاق الرجال رحيبُ
إذا شاهد القواد سار أمامهم ... جرى على ما يستّقون وثوبُ
وإنْ غاب عنهم شاهدتهم مهابة ... بها يقهرُ الأعداد حين يغيبُ

يعفُّ ويستحي اذا كان خالياً ... كما عفَّ واستحيا بحيثُ رقيبُ

وهكذا تَقَبّل الخلفاء هذه النعوت، واستحسنوها، وعدّوها جزءاً من مآثرهم التي ورثوها عن آبائهم، وحبّذوا أنْ تشيعَ بين الناس، وأن تدوّن في بطون الكتب. وإذا رجعنا الى القصائد المدحية في هذا العصر، ودقّقنا النظر في شكلها نجد بعضاً منها لازال يهتدى بالموروث القديم في الوقوف على الأطلال، وذكر عهود الهوى، ووصف معاناة الرحلة. ومثال على ذلك قصيدة علي بن الجهم في مدح الخليفة المعتصم. منها قوله(١٠٣):

قفوا خيّوا الدّيارَ فإنّ حقّاً ... علينا أنْ نحيي بالسّلام
حرامٌ أنْ تخطّاها المطايا ... ولم نذرفْ بمن الدّمع السجام

وبعد وصف متاعب السفر، ومكابدة الناقة لمشقة الطريق، يتخلّصُ الى المدح، مبيناً شجاعة الخليفة وشهامته وقدرته على توفير الأمن وتثبيت عُرى الإسلام،

وأنتَ خليفةُ الله المعلّى ... على الخلفاء بالنّعم العظام
ليهنك يابا اسحاقَ مُلكٌ ... يجلُّ عن المفاخر والمسامي (١٠٤)
لسيفك دانتِ الدنيا وشُدّتْ ... عُرى الإسلام من بعدِ انفصام

ومما يلاحظ أن هذا النظام في بناء القصيدة ولاسيما المقدمة الطللية قد أصابه شيء من التجديد، سواء من الناحية الموضوعية أم من الناحية الفنية، فهي من الناحية الموضوعية لم تعد أوعية تسكب فيها الدموع حسرة على المنازل الدائرة وعهود الحب الضائعة فحسب، بل تحولّت أيضاً عند بعضهم الى منابر يُعلنون من فوقها

ومنهم من لم يلتفت الى الطلول ولا الى جمال الحبيبة والتغزل بها . بل جعل الخمرة فاتحةً لقصيدته المدحية . وهذا اللون من الافتتاحية نجده عند شعراء كثيرين أمثال علي بن جَبلة الملقب بالعَكوك(٥٠) . وأشجع السلمي(٥١) . وعبد الله بن عبد الحميد اللاحقي(٥٢) . ومحمد بن وهيب الحميري(٥٣) . ومسلم بن الوليد الذي يقول في احدى قصائده في مدح الخليفة هارون الرشيد :(٥٤)

هات اسقني طال بي الحبسُ ... من قَهْوة بائعُها وكْسُ
زقيّةُ الدارِ رصافيّةٌ ... أغلى بها الشّماسُ والقسُّ
كأنّها في الكأسِ ياقوتةٌ ... وهي إذا ما مُزِجَتْ وَرْسُ
في مجلسٍ للقصفِ ريحانُهُ ... عِينُ المها والبَقَرُ اللُّعْسُ

ومنهم من تحدث عن حالته أو عن وضعه النفسي . أو عن شيء يُقلقه ويزعجه . من ذلك مثلاً قول منصور النمري في مطلع قصيدة يمدح بها الخليفة هارون الرشيد :(٥٥)

يازائرَيْنا من الخيام ... حياكُما الله بالسّلام
لم تطرقاني وبي خراكُ ... الى حلال ولا حرام
هيهات للّهو والتصابي ... وللغواني وللمدام
أقْصَرَ جهلي وثابَ حلمي ... ونَهْنَهَ الشّيبُ من غُرامي
لله جِسمِيَ وتربُ جِسمي ... ليلة أعياهما مرامي

اراءهم في الحياة . سائرين في نفس الطريق التي مهّدها بعض الشعراء الأمويين قبلهم من أمثال ذي الرمّة والقطامي والعجاج . فما يُصيبها من الاقفار والتغير يصيب الكائنات كلها . فلا داعي للحزن . ولامجال للأسف ، لأنّ كلّ شيء مصيره الى بلى وفناء . غير أنها لم تتحول على كل حال الى قالب فلسفي . إنما هي نظرات جزئية توصلوا إليها وبثوها فيها . ونجتزيء بهذه الأبيات التي استهل بها بشار أرجوزته البائية في مدح عُقبَة بن سَلْم . فانه ضمنها فنوناً من هذه المعاني التي أشرنا اليها . يقول(٥٥)

يادارُ بين الغَرْع والجِنابِ ... عفا عليها عُقَبُ الأحقابِ
قد ذهبتْ والعيشُ للذّهابْ ... لما عرفناها على الخرابِ
ناديتُ هل أسمع من جوابِ ... ومابدار الحي من كرّابِ(٥٦)
إلا مطايا المِرجل الصخّابِ ... وملعب الأحبابِ والأحبابِ(٥٧)
فانقلبتْ والدهرُ ذو انقلابْ ... ماأقربَ العامرَ من الخرابِ

فهو لايكتفي بتجديد موقع المنزل . ولابتعداد بعض بقاياه . ولابسؤاله له واستعجامه عليه . بل يذهب أيضاً الى أن ما أفناه هو تعاقب الأيام والليالي عليه . كما يخرج الحديث عن دثوره وتغير آثاره بالحديث عن الدهر والحياة . فاذا كان قد بلي فإنّ الحياة نفسها مصيرها الى الفناء والزوال . واذا كان قد تغير فالأيام لاتدوم على حال بل تتبدّل من حال الى حال .(٥٨)

وهناك شعراء أهملوا وصف الاطلال والناقة والرحلة . واستعاضوا عنها بالغزل كما نرى في مديح مروان بن أبي حفصة لمعن بن زائدة . والخليفة المهدي الذي يقول فيه القصيدة التي مطلعها :(٥٩)

طرقتْكَ زائرةٌ فحيّ خيالها ... بيضاءُ تَخْلِطُ بالحياء دلالها
قادتْ فؤادك فاستقادَ ومِثْلُها ... قادَ القلوب الى الصبا فأمالها